مجلة جامعة الملك عبدالعزيز: الآداب والعلوم الانسانية، م٢٧ع٥ ص ص: ١٦٩- ١٨٧ (٢٠١٩م)
DOI:10.4197/Art.27-5.7

رثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي: المؤثرات والسمات

أ.د. سعيد بن مسفر المالكي

أستاذ الأدب الأندلسي

قسم اللغة العربية وآدابها –كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة الملك عبدالعزيز – جدة المملكة العربية السعودية

مستخلص. يتناول هذا البحث دراسة قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد من حيث المؤثرات والسمات، وذلك عبر مقدمة ثم تمهيد يستعرض بإيجاز مسيرة قصيدة رثاء النفس عند الشعراء في المشرق والأندلس، ثم من خلال مبحثين يهتم الأول بدراسة المؤثرات التي أسهمت في تشكيل قصيدة رثاء النفس في شعر ابن شهيد، أما المبحث الثاني فإنه يركز على أهم السمات الموضوعية والفنية التي تميزت بها قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، ثم يُختم البحث بكلمة أخيرة له .

المقدمة

لا شك أن ابن شهيد يُعد من أبرز أعلام الشعر الأندلسي، فقد كان من أكثرهم توقداً في القريحة الشعرية[١]، حيث أبدع الكثير من القصائد الشعرية الرصينة والجزلة، ولم يكن شعره مقتصراً على موضوع بعينه، بل طرق شتى الموضوعات الشعرية مظهراً قدرته وبراعته في مجال الشعر ونظمه[٢].

لقد كان موضوع رثاء النفس من الموضوعات الشعرية التي استوقفتني عند ابن شهيد لعدة أسباب منها : التجربة الشعرية الحقيقية التي أفرزتها معاناته

(١) د.إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي :عصر سيادة قرطبة، دار الشروق، عمان، ط١، ٢٠٠١م، ص٢٦٦.

(٢) د.حازم عبد الله خضر، ابن شهيد الأندلسي، حياته وأدبه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية ، دار الشؤون الثقافية والنشر، ١٩٨٤م، ص ١٦١.

مع المرض وإحساسه بدنو أجله، وكذلك عدد القصائد التي نظمها ابن شهيد في هذا الموضوع.

ولذا وقع اختياري على بحث هذا الموضوع الحيوي الذي يهتم برثاء النفس في شعر ابن شهيد الأندلسي، محاولاً أن يكون تناوله عبر محورين هما المؤثرات التي أسهمت في وجود هذا الموضوع الشعري في تجربة ابن شهيد الشعرية، والمحور الثاني الوقوف على أهم السمات الموضوعية والفنية له.

وقد حاولت عبر استقراء القصائد التي قالها ابن شهيد في رثاء نفسه أن أستنطق مضمونها وأقف على ظلالها من حيث المعنى والدلالة بما يخدم أهداف البحث التي تسعى إلى توضيح أبعاد تجربة ابن شهيد الشعرية في موضوع رثاء النفس.

وقد بدأ البحث بتمهيد يهدف إلى التعريف الموجز بقصيدة رثاء النفس بين شعراء المشرق والأندلس[١]، ثم قسمت البحث إلى مبحثين :

الأول يناقش المؤثرات التي دفعت بابن شهيد إلى إنتاج قصائد متعددة في رثاء نفسه، وقد جاءت في أربعة مؤثرات، هي المؤثر : الصحي، والنفسي، والديني، والاجتماعي.

في حين تناول المبحث الثاني أبرز السمات الفنية والموضوعية التي تميزت به قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، وقد اخترت منها: وفرة الإنتاج والجودة الفنية، والتنوع الموضوعي، والحوارية.

ختاماً أتمنى أن يحالفنا التوفيق في توضيح جانب من المؤثرات التي أسهمت في وجود قصيدة رثاء النفس في شعر ابن شهيد، وكذلك أبرز السمات التي ميزتها.

والله الموفق،،،،

التمهيد

مثَّل رثاء النفس ظاهرة واضحة في الشعر الأندلسي، " فقد كان حاضراً في كل العصور الأندلسية، بل على مدار العقود والأجيال، بشكل لافت للاهتمام"[٢]، فالمتأمل في تاريخ الشعر الأندلسي يجد أن موضوع رثاء النفس كان محوراً مهماً لدى الكثير من الشعراء الأندلسيين بدءً من عصر الفتح وحتى عصر غرناطة، فمصادر تاريخ الأدب الأندلسي وكذلك الدواوين الشعرية تضم الكثير من القصائد التي قيلت في رثاء النفس على اختلاف بواعثها ومؤثراتها[٣].

وفي سياق التأثر والتأثير بين المشرق والأندلس فإن من المؤكد أن أهل المشرق كانوا أسبق إلى هذا الموضوع، فلا شك أن شعراء الأندلس تأثروا بسابقيهم من الشعراء المشارقة، فقد رجح أبو هلال

(١) استفدت كثيراً من المعلومات المهمة التي توفرها موسوعة الأندلس باللغة الإسبانية من حيث المصادر العربية والإسبانية التي تناولت حياة ابن شهيد ونتاجه الأدبي :
Jorje Lirola Delgado ,Biblioteca de al-andalus , la Fundación Ibn Tufayl de estudios árabes, Almería ,2007, vol:5 ,pp:403-412.

(٢) د.مقداد رحيم،رثاء النفس في الشعر الأندلسي، دار جهينة، الأردن، ٢٠٠٧م، ص ١٩.

(٣) انظر: قائمة الشعراء الأندلسيين التي أوردها د.مقداد رحيم، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص ١٦-١٩.

العسكري بأن يكون الشاعر الجاهلي يزيد بن حذاق العبدي أول من رثى نفسه من الشعراء ، وذلك في قوله:

هَل لِلفَتى مِن بَناتِ الدَّهرِ مِن واقِ ... أَم هَل لَـهُ مِن حِمَامِ المَوتِ مِن رَاقِ
قَد رَجَّلُونِيَ وَما رُجِّلتُ مِن شَـعَثٍ ... وَأَلبَسـونِي ثِياباً غَيرَ أَخـلاقِ
وَأَرسَـلوا فِتيَـةً مِـن خَيرِهِم حَسَباً ... لِيُسـنِدوا فـي ضَـريحِ التُّربِ أَطبَاقي[١]

في حين أن أول الشعراء الأندلسيين إشارة إلى موضوع رثاء النفس هو أبو المخشى العبدي تـ١٨٠هـ في قصيدته الشهيرة التي من أبياتها :

وَإِذَا نَـالَ العَمَـى ذَا بصـر ... كَانَ حَيَّاً مِثْلَ مَيْتٍ قَدْ ثَوَى[٢]

ولم نجد ابن عبد ربه تـ ٣٢٨هـ –وهو من أوائل مؤرخي الأدب في الأندلس– مهتماً بتسجيل هذا الموضوع الشعري في ذاكرة الشعر الأندلسي؛ بالرغم من تخصيصه باباً عن المراثي فيمن رثى نفسه، فقد صرف همه لبيان الشعراء المشارقة الذين رثوا أنفسهم ووصفوا قبورهم وكتبوا عليها الشواهد[٣].

لكن يبقى القول بأن البيئة الأندلسية ربما أعطت طابعاً مختلفاً لشعر رثاء النفس في موضوعات الشاعر الأندلسي، فالمجتمع الأندلسي يتميز بعوامل مختلفة ومؤثرات خاصة تتعلق بالأبعاد البيئية والوجدانية والروحية والاجتماعية، وقد كان هذا واضحاً في الكثير من الموضوعات الشعرية الأخرى، ولعل خير مثال على ذلك هو عنصر الطبيعة الذي يسيطر كثيراً على مجمل النتاج الشعري الأندلسي، والذي نجده كذلك حاضراً في بعض قصائد رثاء النفس عند الشعراء الأندلسيين، ومن ذلك قول ابن زيدون في رثاء نفسه :

أَلَم يأنِ أَنْ يَبْكِي الغَمَامُ عَلَى مِثْلِي ؟
ويطلبَ ثَأْري البرقُ منصلتَ النصلِ
وَهَلاّ أَقَامَتْ أَنْجُمُ اللّيلِ مَأتماً ،
لتندبَ في الآفاقِ ما ضاعَ من نَثْلِي[٤]

وكذلك قول ابن عمار :

عَلَيَّ وإلَّا مـا نيـاحُ الحمـائمِ ... وفـيَّ وإلاَّ مـا بُكـاءُ الغَمَـائمِ
وعنـيَّ أثـارَ الرعـدُ صرخةَ طالبٍ ... لثأرٍ وهزَّ البرقُ صفحةَ صارمِ
وما لَبِست زهرُ النجوم حِدادَها ... لغيري ولا قامتْ لـهُ في مآتمِ
وهلْ شقَّقَتْ هُوجُ الرياحِ جيوبَها ... لغيـري أو حنَّـت حنـينَ الـروائمِ[٥]

وفيما يتعلق بالجوانب المجتمعية فإن الشعراء الأندلسيين دأبوا على التوصية بكتابة الأبيات التي قيلت في رثائهم على نُصب تشهد على قبورهم، فكان ذلك يشكل ظاهرة بارزة في الأندلس وعند معظم شعرائها على غرار المعتمد بن عباد وابن الخطيب وغيرهما.

---

(١) أبو هلال العسكري، الأوائل، تحقيق : د.محمد السيد الوكيل، دار البشير، طنطا، ط١، ١٩٨٧م، ص٤٤٠.
(٢) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق : د.محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م،ج٤، ٢٣٤-٢٣٥.
(٣) انظر: ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق : إبراهيم محمد صقر، مكتبة مصر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ج٢، ص٢٩٩-٤٠٤.
(٤) ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق : د.علي عبدالعظيم، منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط٣، ٢٠٠٤م، ص٣٤٦.
(٥) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : د.إحسان عباس، الدار العربية للكتاب ، تونس، ١٩٧٥م ،القسم الأول، المجلد الثاني، ص٢٢٣.

أما في شأن فلسفة الموت التي يقوم عليها موضوع رثاء النفس ويدور في فلكها، فإن الشاعر الأندلسي تعرض للكثير من قضايا هذه الفلسفة وأبعادها المختلفة، فالإيمان والتسليم بالموت كان محوراً دائماً في تناول الشاعر الأندلسي لنعي ذاته ورثاء نفسه، ومن ذلك قول ابن الخطيب :

فَقُل للعدَا ذَهَبَ ابنُ الخطيبِ وَفَاتَ ومن ذَا الَّذي لا يَفُوت
ومنْ كانَ يفْرَحُ منكمْ له فقُل : يفْرحُ اليَوْمَ من لا يَموت[١]

وكذلك يقول ابن الزقاق البلنسي في هذا المعنى عند رثائه لنفسه :

أإخوانَنَا والموتُ قَدْ حالَ بيننا وللموت حُكمٌ نافذٌ في الخَلائقِ
سَبَقْتكُمُ للموتِ والعُمرُ طيَّةٌ وأعلـمُ أنَّ الكـلَّ لابُـدَّ لاحـقُ[٢]

في حين أن الإيمان كذلك بالحياة الأخروية مدارٌ مطروقٌ لشعراء الأندلس في موضوع رثاء النفس، يقول الشاعر عبدالكريم القيسي واصفاً صورة القبر أول منازل الحياة الأخروية :

ويجنـح للـدنيا اعتـذاراً وإنــهُ سـيرحَلُ عنهـا عنْ قريـبٍ إلـى
ويتـركُ فيهـا مـا حـواه لغيـرهِ القبرِ ويذهبُ عنها معدماً منه
إلى جَدثٍ بيتَ التغَّرُّبِ والبِلـى ذا فقرِ يُقيمُ بـه حتـى القيامـةَ
فيبصـرُ أهـوالاً ويلقـى شـدائداً والحشرِ يشيبُ لهـا رأسُ الفتـى
الحدث العُمُرِ[٣]

ونجد من الأبعاد التي تفرضها طبيعة فلسفة الحياة والموت الحسرة على مغادرة الدنيا والتشبث بأهدابها، وقد عبر عن ذلك الكثير من الشعراء في الأندلس، ومن ذلك قول أبي الحسن بن الفضل الأريولي :

فـوا أسَـفى أتُـدرِكُنِي المنايـا ولـم أبلــغْ مــن الـدنيا مُـرادي
وما هو غير أن أُدعى وحسبي حَيا الإخوان أو حربُ الأعادِي[٤]

وعلى نحو ما نجده ماثلاً عند المعتمد بن عباد الذي تفيض بعض أبياته حسرة وألماً على موته، ومن ذلك قوله :

قبر الغريبِ سقاكَ الرَّائحُ الغادِي حقاً ظفَرْتَ بِأشْلاء ابن عبَّادِ[٥]

تلك كانت لمحة موجزة لبعض جوانب رثاء النفس عند عموم الشعراء الأندلسيين، وقد حاولت أن أقدمها من خلال الوقوف على بعض الأبيات التي قالها شعراء الأندلس في رثاء أنفسهم.

المبحث الأول

مؤثرات رثاء النفس في شعر ابن شهيد

لا شك أن قول الشعر يخضع لعدد من المؤثرات، وهي مؤثرات فاعلة في بنية الشعر وجودته، وقد كانت هذه المؤثرات مداراً للنقاش والبحث عند النقَّاد والقدماء، فمن ذلك ما قاله ابن

---

(١) ديوان ابن الخطيب، تحقيق : د.محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٩م، ج١، ص١٨٥.
(٢) ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق :عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص٢٠٥.
(٣) ديوان عبدالكريم القيسي، تحقيق : د.جمعة بن شيخة – د.محمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، ١٩٨٩م، ص٤٦٢.
(٤) أبو بكر المالقي، أدباء مالقة، تحقيق : د.صلاح جرار، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٩م، ص٤٠٦.
(٥) ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق : د.حامد عبد الحميد – د.أحمد بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م، ص٩٦.

رشيق عن قواعد الشعر والتي حددها في أربعة مؤثرات هي : الرغبة والرهبة والطرب والغضب[١]، وقد وافقه على ذلك حازم القرطاجني في المنهاج[٢].

وربما نجد بعض النقاد من خلال ملاحظته الفنية ورؤيته النقدية يقوم بتصنيف الشعراء في شاعريتهم وفقاً للمؤثر الذي يحرك فيهم الطبع الشعري ويوقد جذوة الإبداع داخلهم، فقد سُئِلَ يونس النحوي "من أشعر الناس ؟ فقال : امرؤ القيس إذا ركب ، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب، والأعشى إذا طرب"[٣].

ووفقا لذلك يظهر لنا أن هناك ارتباطاً واضحاً نستطيع قراءته من حديث النقاد القدماء عن مؤثرات الشعراء، وهو ارتباط المؤثرات بالموضوع الشعري، فالمؤثرات الأربعة التي ذكرها ابن رشيق نجده يربطها بسياق الموضوع الشعري، فيقول : " فمع الرغبة يكون المدح والشكر، ومع الرهبة يكون الاعتذار والاستعطاف، ومع الطرب يكون الشوق ورقة النسيب، ومع الغضب يكون الهجاء والتوعد والعتاب الموجع"[٤].

ولعلنا نلحظ من هذا القول أن ابن رشيق لم يشر للرثاء، وربما لأنه كان معدوداً ضمن موضوع المديح، حيث يرى بعض النقاد بأن الرثاء هو ذكر لخصال الميت ومناقبه، ولذلك جعلوه ضمن دائرة موضوع المديح.

بيد أن النقاد القدماء " فطنوا إلى أن الرثاء أصدق فنون الشعر العربي وأشجاها، وذلك لصدوره عن تجربة حقيقية ومعاناة واقعية "[٥]، فقد سُئِلَ أحد الأعراب " ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ قال : لأنا نقول وأكبادنا تحترق "[٦]، ولذا فإن دور المؤثر في إنتاج هذا الموضوع الشعري يعتبر محوراً رئيساً في بناء مضامينه وتشكيل فنونه.

ولا ريب أن شعر رثاء النفس يقع ضمن نطاق ضيق وحلقة متقاربة الأطراف، فنفس الشاعر وذاته هما ميدان هذا الموضوع ومجاله، ولذا نجد صدق العاطفة وقوة الانفعال متمثلة في كل حرف انتظم في هذا الموضوع، وتحت ظلال كل جملة شكلت معانيه وصوره الفنية.

أما عن المؤثرات التي صاغت شعر رثاء النفس عند الشاعر فهي بكل تأكيد ذات أبعاد عميقة في نفسه؛ فهي متشابكة في بنيتها، متداخلة في سريانها، لا تكاد تستطيع التفريق بين مؤثر وآخر، وهي بهذا الوصف تقترب كثيراً من وصف النفس الإنسانية في تشابك مشاعرها وتعقدها، فعندما تكون

(١) ابن رشيق : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م، ج١، ص١٢٠.
(٢) انظر: حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق : د.محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م، ص٣٣٦.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، تحقيق : د.إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م، ج٩، ص٨٠.
(٤) ابن رشيق، العمدة، ج١، ص١٢٠.
(٥) د.محمد عبدالله أبو الخير، شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي : دراسة موضوعية وفنية، دار جهينة، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م، ص١٥.
(٦) الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الفكر، بيروت، ج١، ص١٣٠.

في موقف من مواقف الصراع تظهر فيها المتناقضات كلها أو تكاد[١]، وتختلط معها المؤثرات المؤدية إلى ذلك.

إن شاعراً مثل ابن شهيد الأندلسي وهو ينسج من وحي خياله وعمق وجدانه قصائد متعددة في رثاء نفسه ونعي ذاته، قصائد تقطر ألماً وتنزف حسرة على عمره الذي تتهاوى أوراقه مبكراً وتتساقط أغصانه سريعاً، فلا شك أن هذا كله لم يأتِ اعتباطا بل كان هناك العديد من المؤثرات التي شكلت أبعاد تجربته الشعرية في رثاء نفسه والنوح على ذاته، ولذا فإنني حاولت عبر هذا المبحث أن أقف على مجموعة من المؤثرات المهمة التي دفعت بابن شهيد إلى رثاء نفسه في العديد من القصائد، وقد تعددت تلك المؤثرات وتنوعت، لكني فضلت أن أقف على جزء منها متأملاً ذلك في ثنايا أبيات قصائده التي قالها في رثاء نفسه، وعبر محطات حياته التي لم تمتد كثيراً، ولم تستمر طويلاً، وقد جاءت هذه المؤثرات على النحو الآتي:

أولاً : المؤثر الصحي

يأتي المؤثر الصحي في مقدمة المؤثرات التي أسهمت في نظم ابن شهيد لتلك القصائد التي رثى فيها نفسه، ووصف سقمها وضعفها، " فقد لزمته آخر عمره علة دامت به سنين، ولم تفارقه حتى تركت أعضاءه قد حُنين، وأحسب أن الله أراد بها تمحيصه وإطلاقه من ذنب كان قنيصه فطهره تطهيراً، وجعل ذلك على العفو له ظهيراً، فإنها أقعدته حتى حُمل في المحفة، وعادته حتى غدت لرونقه مشتَّة"[٢].

يقول ابن شهيد في وصف المرض الذي جعله قعيد الدار ونال منه، حتى تركه ضعيفاً سقيماً لا يقوى على الحراك سوى بمساعدة العصا :

أظلُّ قعيدَ الدار تجنُبُني العصا على ضعف ساقٍ أوهن السُقمُ رجلها[٣]

ويصور لنا ابن شهيد حجم الألم الذي يقاسيه بفعل المرض الذي يضغط على أنفاسه فيرى الموت مقبلاً عليه، ولا مناص من الخلاص منه :

إني لأَرْمقُه والموتُ يضغطني فأقتضي فُرجةً مرتدَّ أرماقي[٤]

لقد كان المؤثر الصحي المتمثل في المرض أقوى المؤثرات وأشدها دافعية على رثاء ابن شهيد لنفسه، فقد عصف بحياته وزلزل أركانها، وقد ازداد الأمر سوءاً وارتفع مستوى معاناته مع المرض في آخر أيام حياته، مما جعله يطلق الأنات شعراً، والألم إبداعاً، يقول ابن بسام واصفاً أيام ابن شهيد الأخيرة ومعاناته مع المرض والألم " ولما طال بأبي عامر

(١) د.أحمد عبدالعزيز، قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م، ص٧١.

(٢) ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس، تحقيق : محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة ، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص٢٠٠.

(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمع : شارل بلا، دار المكشوف، بيروت، ط١، ١٩٦٣م، ص ١٢٦، وسوف يعتمد البحث على هذا الديوان ؛ نظراً لأن قصائد رثاء النفس التي قالها ابن شهيد لم يُضفْ إليها شيء في تحقيقات الديوان الأخرى.

(٤) الديوان، ص ١١٦.

ألمه، وتزايد سقمه، وغلب عليه الفالج الذي عرض له في مستهل ذي القعدة من سنة خمس وعشرين وأربعمائة، لم يعدمه حركةً ولا تقلباً، وكان يمشي إلى حاجته على عصاً مرةً، واعتماداً على إنسان مرة، إلى قبل وفاته بعشرين يوماً، فإنه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب، ولا يتحمل أن يحرك لعظيم الأوجاع، مع شدة ضغط الأنفاس وعدم الصبر"(١)، لقد صور ابن شهيد جانباً من هذه المعاناة في قوله :

فقلت والسُّقْم منشورٌ على جسدي   يحدو الردى ورداء العيش مطويُّ:
إن متُّ قبلك لا تعجب فذو أملٍ   قد حُمَّ من دونه يوما حِماميُّ
أو متَّ قبلي فما مَنْعاكَ لي عجب   إن الكريمَ إلى الأصحاب منعيُّ(٢)

لقد كان المرض باعثاً رئيساً وعاملاً مؤثراً على ابن شهيد في نظم القصائد والأبيات التي عبر فيها عن معاني النوح وترديد عبارات الندب والتأبين على نفسه التي تصرمت أمام ناظريه، فكان من أشهر شعراء الأندلس في هذا الباب، لقد خطف المرض لذة العيش التي كان يتمتع بها أبو عامر، فلم يكن لكبر سنه أثر يذكر في رثاء نفسه فقد خطفه الموت ولما يبلغ الشيخوخة، ولذا وجدناه يتحسر على عمره الذي انقضى باكراً وانفرط عقده سريعاً، فيعبر عن ذلك بقوله :

هذا كتابي وكفُّ الموت تـزعجنـي   عن الحياةِ وفي قلبي لكمْ ذِكـرُ
إن أقْضِكم حقّـكم من قِـلّـةِ عُمُري   إنـي إلى الله لا حَـقٌّ ولا عُـمُر
لهْفي على نيِّراتٍ مـا صَدعْتُ بهـا   إلا واظلـمَ من أضوائها القمرُ(٣)

(١) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الأول، المجلد الأول، ص٣٢٨.
(٢) الديوان، ص ١٨٦.
(٣) الديوان، ص٦٢.

ثانياً : المؤثر النفسي

من المتفق عليه –غالباً– أن العملية الشعرية بوصفها عملية إبداعية تنطلق في وجودها وترتكز في إنتاجها على نفس الشاعر وما يطرأ عليها من تغييرات فسيولوجية، سواءٌ أكان ذلك بالسلب أو بالإيجاب، في حالة حزن أو حالة سرور وابتهاج، أو غير ذلك من حالات النفس الإنسانية، وقد وجدنا عدداً من الإشارات في تراثنا القديم تؤكد أن لنفس الشاعر أثراً كبيراً في تشكيل تجربته الشعرية، فمن ذلك ما قاله معاوية لصحار العبدي : " ما هذا الكلام الذي يظهر منك ؟ قال شيء تجيش به صدورنا فتقذفه على ألسنتنا "(٤)، أما في جانب الدراسات الحديثة فقد أكدت الكثير منها على أثر النفس في العمل الأدبي ولاسيما الشعري منه، سواءٌ أكان ذلك على مستوى إنتاج الإبداع(٥)، أو حتى على مستوى التلقي(٦).

وبالرغم من أهمية المؤثر النفسي في العملية الشعرية إلا أنه ليس وحيداً في دائرة التأثير بل يعضده مجموعة من المؤثرات الأخرى، فيكون في اتصال دائم معها، ولذا نجد أن المؤثر النفسي في رثائيات النفس عند ابن شهيد يتصل كثيراً بمؤثرات

(٤) الجاحظ، البيان والتبيين، ج٤، ص٤٦.
(٥) انظر: د.مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع : في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م،ص٣٢٨.
(٦) انظر: د.عزالدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي : عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ١٧١-١٨٦.

أخرى ويتداخل معها ليشكل التجربة الشعرية لابن شهيد في هذا الموضوع.

فعبر قراءة القصائد التي قالها ابن شهيد في رثاء نفسه نلحظ جلياً بأن المؤثر النفسي على علاقة متصلة بالمؤثر الصحي في بناء تلك القصائد، وربما كان نتيجة طبيعة له، وبالرغم من هذا الارتباط بين المؤثرين إلا أن المؤثر النفسي في رأيي يظل مؤثراً بارزاً ومهماً في وجود قصائد رثاء النفس في ديوان ابن شهيد، فقد وجدتُ أثره واضحاً في ثنايا القصائد التي نظمها والأبيات التي صاغها في رثاء نفسه والندب على فواتها.

وليس عجيباً أن تدانتْ مَنـيَّـتي ... يُصدِّق فيها أوَّلي أمرُ آخري
ولكـن عجيباً أنَّ بيـن جـوانـحِي ... هوىً كشرارِ الجمرةِ المتطايـرِ
يحركنـي والمـوتُ يحفِـزُ مُهجتي ... ويهتاجني والنفس عند حناجرِي[١]

لقد كرر ابن شهيد كلمة النفس في رثائياته عدة مرات، فكان في كل واحدة يعكس قوة الأثر النفسي الذي يرزح تحت وطأته ويدفع به نحو رثاء حاله، فمن ذلك وصفه لنفسه وشدة ما تقاسيه من الألم، ولاسيما أن الموت يتحرك نحوها ويحاول انتزاعها :

زاد البلاءُ على نفسي فأعدمَهَا ... صبري، فصبري عليك اليوم
حتى أهُمَّ بقتلي كلَّ داجيةٍ ... وحشيُّ يا قـوم هل رامَ هذا قبـلُ
إني إلى الله من عُقبى بُليتُ بها ... إنـسيٌّ؟ جرى بها الحكمُ والأمرُ الإلهيُّ[٢]

لقد كان المؤثر النفسي محركاً قوياً ليقول ابن شهيد مجموعة من القصائد في رثاء نفسه، حيث بلغ ذروة الأزمة النفسية بعد أن فكر في قتل نفسه عدة مرات، فقد كان يعيش حالة مؤلمة وهو ينتظر لحظة الموت في كل حين ، تلك اللحظة التي " تمثل جانباً قاسياً من إدراكاتنا، خاصة إذا كان الإنسان يتأمل نفسه من الباطن، وهو جانب لا يراه المشاهدون من الخارج "[٣]، يقول ابن شهيد نادباً نفسه:

أنـوحُ علـى نفسـي وأنـدُبُ نُبلهـا ... إذا أنـا فـي الضراء أزمعتُ قتلهـا[٤]

إن المتأمل لحركة النفس في رثائيات ابن شهيد يجد انخفاضاً حاداً في مؤشرها، فقد انهارت بشكل كبير بسبب إحساس ابن شهيد بدنو أجله، فقد رسمت حالة الضعف النفسي التي يقاسيها الشاعر أكثر من صورة لندب حاله والبكاء على انتقاله من الدنيا إلى عالم الآخرة، ولعل ذلك يتضح في رسم حركة النفس البائسة لديه في الأبيات التالية :

ولمـا رأيتُ العيـشَ ولَّى برأسِـهِ ... وأيقنتُ أنَّ الموتَ لا شكَّ لاحِقِي
تمنيتُ أنّي سـاكِـنٌ فـي غيابـةٍ ... بأعلى مهبِّ الرّيح في رأس شاهقِ
أُذِرُّ سقيطَ الحَبِّ في فضل عِيشـةٍ ... وحيداً، وأحْسُو الماء ثَنيَ المفالِقِ
خليلـيَّ منْ رامَ المـنـيـَّةَ مـرَّةً ... فقد رمتُها خمسين، قَوْلةَ صادقِ
كأني، وقد حـان ارتحاليَ، لم أفـُزْ ... قديماً من الـدنيا بلمحةِ بـارِقِ[٥]

(١) الديوان، ص٧٤.
(٢) الديوان، ص١٨٦.
(٣) د.سمير عبده، التحليل النفسي للحظة انتظار الموت، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص٥٢.
(٤) الديوان، ص١٢٦.
(٥) الديوان، ص١١٠.

ثالثاً : المؤثر الديني

عُرف عن حياة ابن شهيد بأن اللهو والمجون غلب على معظم فتراتها، فابن بسام يصفه بأنه " قد غلب عليه البطالة فلم يحفل في آثارها بضياع دين ولا مروءة، فحط في هواه شديداً حتى أسقط شرفه، ووهَّمَ نفسه راضياً في ذلك بما يلذه، فلم يُقْصِر عن مصيبة، ولا ارتكاب قبيحة "[١]، ولم يبتعد ابن سعيد في كتابه المغرب عن هذا الوصف لابن شهيد فقد نقل عن الحجاري قوله بأنه " كان ألزم للكأس من الأطيار بالأغصان، وأولع بها من خيال الوصل بالهجران "[٢].

لكن هذا الأمر تغير برمته، وذلك بعد مرضه وشعوره بقرب موته، فقد " كان أبو عامر كثيراً ما كان يخشى صعوبة الموت، وشدة السوق، فيسر الله عليه، وما زال يتكلم ويرغب إلى الله أن يرفق به، ويكثر من ذكره، وقد أيقن بفراق الدنيا، إلى أن ذهبت نفسه"[٣]؛ ولذا فقد أخذ ابن شهيد في التقرب إلى الله والندم على ما فات، فغلب على شخصيته آخر حياته الزهد والتوبة والندم، وقد ظهر ذلك جلياً في رثاء نفسه، ولم يكن ذلك بمستغرب على رجل مقبل على آخرته، تارك لدنياه، فكل الشعراء الذين رثوا أنفسهم احتل البعد الديني حيزاً كبيراً من شعرهم ووجدانهم ومعانيهم[٤].

لقد كان الجانب الديني مؤثراً مهماً في بناء قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، فقد حملت بعض القصائد رثاء النفس في ديوانه معاني الندم والتوبة، فبعد أن تأمل حياته التي مرت كلمح البصر ووجد أنه مع قرب الموت ومغادرة الناس لقبره بعد موته حتماً سيكون رهيناً لعمله الذي قدمه في الدنيا، يقول ابن شهيد في ذلك :

تأمَّلتُ ما أفنيتُ من طول مدَّتيو فلمْ أرَه إلا كلمحةِ ناظِرِ
حصَّلتُ ما أدركتُ من طول لذَّتي فلم أُلفِهِ إلا كصفْقةِ خاسرِ
وما أنا إلا رهْن ما قدَّمت يدِي إذا غادروني بين أهل المقابرِ[٥]

وبين رجاء مغفرة الله وذكر الناس له وعدم نسيانه بالدعاء بعد موته يصور لنا ابن شهيد ذلك في قوله:

عسى هامَتِي في القبر تسمَعُ بترجيعِ شادٍ أو بتطريب طارقٍ
بعضَه فلي في ادِّكاري بعد موتيَ فلا تمنعونيها عُلالةَ زاهقِ
راحةٌ وإنّي لأرجو الله فيما ذنوبي به مما درى من حقائقِي[٦]
تقدَّمتْ

ويظهر المؤثر الديني بوضوح في بناء قصيدة أخرى لابن شهيد يخاطب فيها صاحبه متذكراً أيام اللهو والسرور، راجياً عفو المولى ورحمته التي وسعت كل شيء :

---

(١) ابن بسام، الذخيرة،،القسم الأول، المجلد الأول، ص١٩٣.
(٢) ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب، تحقيق : د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م، ج١، ص٨٥.
(٣) ابن بسام، الذخيرة، القسم الأول، المجلد الأول،ص٣٣٤.
(٤) د.محمد أبو الخير، شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي ، ص١٣٥.
(٥) الديوان، ص٧٣.
(٦) الديوان، ص١١١.

يا صاحبي قُمْ فقَد أطلْنا أنحن طول المدى هُجودُ؟
فقال لي : لن نقوم منها ما دام من فوقنا الصعيدُ
تذكر كم ليلة لهَوْنا في ظِلّها والزمان عيدُ
وكم سرورٍ هَمَى علينا سحابةً ثَرَّةً تجودُ
كلٌّ كأنْ لم يكن تقضَّى وشُؤمه حاضرٌ عتيدُ
حصَّله كاتبٌ حفيظٌ وضمَّه صادقٌ شهيدُ
يا ويلنا إن تنكَّبَتنا رحمةُ من بطشُه شديدُ
يا ربِّ عفواً فأنت مولىً قصَّر في أمرك العبيدُ[1]

وبالرغم من حالة الحسرة والانكسار التي عانى منها ابن شهيد إلا أنه بدا في بعض أبيات قصائده مسلماً لأمر الله راضياً بما كتب، وذلك مثل قوله :

رضيتُ قضاءَ الله في كل حالةٍ عليَّ وأحكاماً تيقَّنتُ عدلها[2]

رابعاً : المؤثر الاجتماعي

لاشك أن المؤثر الاجتماعي يؤدي دوراً مهماً في حياة الشاعر وتشكيل تجربته الشعرية، وتتوقف فاعلية هذا المؤثر على الحيز الذي يشغله ويتحرك في دائرته، والناظر لتفاصيل حياة ابن شهيد التي وصلت إلى ثلاث وأربعين سنة تقريباً يجد أنها حفلت بالكثير من الأحداث المجتمعية والمحطات الاجتماعية ذات التأثير الواضح على حياة ابن شهيد وتجربته الشعرية ولاسيما في جانب شعر رثاء النفس.

وليس مهماً أن نتعرض إلى تفاصيل حياة ابن شهيد الاجتماعية لكي ندرك جوانب من فاعلية المؤثر الاجتماعي على تشكيل قصيدة رثاء النفس وبنيتها الموضوعية، وحسبنا في ذلك أن نعرض لأهم محطات مسيرته والتي تركت بصمات جليةً على رثاء نفسه وندبها، فمن ذلك الفتنة التي دبت في عصره " واستمرت من سنة ٤٠٠ حتى سنة ٤٢٢هـ، ومعنى هذا أن ابن شهيد قد قضى نصف حياته في الفتنة، فعاصر بذلك أهوالها ومصائبها، وهي فترة خطيرة من الزمن بالنسبة له، فقد بدأت وهو في حوالي الثامنة عشرة من عمره"[3]، كما أنه تعرض للسجن من جراء ذلك، فقد وصف لنا ابن خاقان ذلك في قوله " وانبرت إليه منها خطوب، نبا لها جنبه عن المضجع، وبقي بها يأرق ولا يهجع، إلى أن علقته من الاعتقال حباله، وعقلته في عقال أذهب ماله، فأقام مرتهناً ولقي وهناً"[4].

ولاشك أن هذه الأحداث أثرت في منظومة بناء قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، فنجده يستحضر شخصيات سياسية شاركت في أحداث هذه الفتنة وشكلت جزءاً من ملامحها، فهذا المنصور والمظفر من بني عامر يوردهما ابن شهيد في قصيدة رثى فيها نفسه ويدعو لهما بالنصر والظفر على أعدائهما، فيقول :

هذا كتابي وكفُّ الموت تزعجني عن الحياةِ وفي قلبي لكمْ ذِكرُ
إن أقْضِكم حقّكم من قِلّةِ عُمُري إني إلى الله لا حَقٌّ ولا عُمُر
لهْفي على نيّراتٍ ما صَدعْتُ بها إلا واظلَمَ من أضوائها القمرُ
فاقْرَ السلامَ على المنصورِ أفضل سعى لثأر بني الإسلام فانتصروا
من واعطِفْ بها عَطفَةً تهْتزُّ من كرَمٍ على المظَفَّرِ فهْو الفلْجُ والظَّفَر[5]

(١) الديوان، ص٢٦.
(٢) الديوان، ص١٢٦.
(٣) د.حازم عبد الله خضر، ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، ص٣٣.
(٤) ابن خاقان، مطمح الأنفس، ص١٨٩.
(٥) الديوان، ص٦٢.

بيد أن أقوى عناصر المؤثر الاجتماعي التي أثرت في بنية قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد ذكره الدائم لأصدقائه وأصحابه وتوجيه السلام لهم والنداء لهم بالسقيا والخير وذلك في عدد من القصائد، وفي ظني أن هذا ناتج عن مجموعة من العوامل، لعل من أهمها افتقاد ابن شهيد لمشاعر الأسرة وعاطفة الأبوة، " فلم يترك ابن شهيد ذرية، وبموته انتهت سلالة أبيه "(١)، ولذا فقد تضاعفت عليه الآلام والحسرات عند إحساسه بدنو أجله، فلم يجد بجانبه قريباً من أهله ولا أنيساً من أسرته، فلا زوجة تخفف عليه مصابه، ولا ابناً يعضد جانبه، أو ابنة ترأف بحاله، فأطلق عبر رثائياته عبارات الندم والحسرة على عمره الذي انصرم وهو فرداً وحيداً يقترب منه الموت لحظةً فلحظة :

عليكمُ سلامٌ من فتًى عضَّه الردى يَبينُ وكفُّ الموتِ يخلَع نفسه   **ولم ينسَ عينا أثبتت فيه نبلها وداخلها حبٌّ يـهوّن ثُكلها(٢)**

لقد وجد ابن شهيد نفسه راحلاً عن الدنيا، فشعر بالوحدة وهو يصارع الموت ونزعاته، ولذا وجد في ذكره لأصحابه سلوة لخاطره وتخفيفاً لمصابه، فكان ابن حزم من أقرب الأصدقاء إليه الذي قام في إحدى قصائده بتوديعه وأبلغه بقرب رحيله، وطلب منه ألاَّ ينساه بعد مماته، وأن يذكر ما كان بينهما من ذكريات جميلة في سالف الأيام، فقال :

كأني، وقد حان ارتحالي، لم أفزْ   **قديماً من الدنيا بلمحةِ بارقِ**
فمن مُبلغٌ عنّي ابن حزمٍ وكان لي   **يداً في مُلِمَّاتي وعند مضايقي:**
عليكَ سلامُ الله إني مُفارِقُ   **وحسبُك زاداً من حبيبٍ مفارقٍ**
فلا تنْسَ تأبيني إذا ما فقدتَني   **وتذكارَ أيامي وفضلَ خلائقِي**
وحرّكْ له بالله مهما ذكرتَني   **إذا غيَّبوني كلَّ شهمٍ غُرانقِ(٣)**

وكلما يقرب من ابن شهيد الموت فإنه يبادر إلى إرسال الوداع لإخوانه ولأصحابه عبر أبيات تفيض بمشاعر الألم، وذلك مثل قوله :

أستودعُ اللهَ إخواني وعِشرتهم   **وكلَّ خِرْقٍ إلى العلياءِ سبَّاقِ**
وفتيةً كنجوم القذْفِ، نيِّرُهمْ   **يهدِي، وصائبهمْ يودي بإحراقِ(٤)**

لقد رحل ابن شهيد عن عالمنا ولم يكن له من أسرته أحد يذكره أو يتألم لفقده إلا إخوانه وأصحابه الذين رثوه بالقصائد وتفجعوا على ذهابه فوق قبره الذي "لم يشهد على قبر أحد ما شهد على قبره من البكاء"(٥)، موصياً بأن يوضع عليه شاهد ويكتب فيه من نثره وشعره.

المبحث الثاني

سمات رثاء النفس في شعر ابن شهيد

لم يختلف النقاد القدماء في المشرق والمغرب على الشاعرية الفذة التي امتلكها ابن شهيد، وقد أفردت الكثير من الدراسات الحديثة المجال للحديث عن تلك الآراء التي وضعت ابن شهيد في مكانة مرموقة ومنزلة مرتفعة(٦).

---

(١) الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة أهل الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م ، ص ١٣٦.
(٢) الديوان، ص١٢٧.
(٣) الديوان، ص١١٠-١١١، وانظر كذلك قصيدته التي ذكر فيها صديقه اللمائي، ص ١٨٥، وشخص اسمه عمر، ص ١٤٦.
(٤) الديوان، ص١١٥.
(٥) ابن بسام، الذخيرة،،القسم الأول، المجلد الأول،ص٣٣٥.
(٦) انظر: أ.د.عبدالله المعطاني، ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٤م، ص٥٥-٦٠.

وسوف نحاول في هذا المبحث أن نوضح ملامح موجزة لأهم السمات الفنية والموضوعية التي امتاز بها شعر رثاء النفس عند ابن شهيد، وذلك من خلال النقاط الآتية :

أولاً : وفرة الإنتاج

عُرف عن الشاعر الأندلسي عموماً بوفرة الإنتاج في موضوع رثاء النفس، فلا يكتفي الشاعر منهم بقصيدة واحدة، بل قد تجد عند معظمهم قصائد متعددة في هذا الموضوع الشعري(١)، ولعل ابن شهيد من أكثر شعراء الأندلس وفرة في إنتاج قصائد رثاء النفس، فقد نظم ثمان قصائد من أصل أربع وسبعين قصيدة ضمها الديوان، أي ما نسبته ١١% تقريباً، أما الأبيات التي جاءت في قصائد رثاء النفس فقد بلغ مجموع أبياتها حوالي ثمانين بيتاً(٢).

والملاحظ أن إنتاج هذه القصائد جاء في فترة قصيرة، وهي الفترة التي كان فيها ابن شهيد يعاني من المرض والخوف و شبح الموت، حيث " قام في الشهور السبعة التي مرت بين إصابته بالفالج ووفاته بتأليف ما لا يقل عن عشر قصائد... وفي هذه القصائد التي يمزقها الأسى والعذاب تتبين عبقرية ابن شهيد الأصيلة "(٣).

لقد عكست هذه الوفرة الإنتاجية لشعر رثاء النفس عند ابن شهيد عمق التجربة الشعرية والتركيز العاطفي لديه، حيث حاول أن يلفظ من روحه حروفاً وكلمات وعبارات تعبر عن عمق الألم الجسدي والنفسي الذي يقاسيه ابن شهيد وهو يقابل الموت الذي " كان من أشد الناس إحساساً بكراهته، فقد بلغ من تفزعه أن شعر معاصروه جميعاً بألمه وتهالكه على التشبث بأذيال الحياة"(٤)، ولذا أطلق الآهات شعراً والآلام قصائد في فترة قصيرة وبكثافة عالية وتركيز فني مبدع.

ثانياً: الجودة الفنية

قبل أن نوضح ملامح الجودة الفنية في قصائد رثاء النفس عند ابن شهيد يجدر بنا أن نسلط الضوء سريعاً على آراء النقاد ومؤرخي الأدب قديماً وحديثاً حول شاعرية ابن شهيد ، فقد قال عنه ابن بسام في الذخيرة بأنه " نادرة الفلك الدوار وأعجوبة الليل والنهار؛ إن هزل فسجع الحمام، أو جدّ فزئير الأسد الضرغام"(٥) ، ويصفه الثعالبي بأن " نظمه في غاية الفصاحة"(٦) ، أما الفتح بن خاقان فيقول عن سعة خياله الشعري بأنه " لا تراه يغترف إلا من بحر ، مع انطباع ، مشى في طريقه بأمدّ باع" (٧).

أما في العصر الحديث فيصف المستشرق شارل بلا شعر ابن شهيد بالأصالة وإثارة الإعجاب وأن ما تركه من أبيات دليل على نبوغه وسبب لتخليد ذكره

(١) د.مقداد رحيم، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، ص ٣٥.
(٢) انظر الديوان، ص: ٢٦، ١١٠،٧٣،٦٢، ١١٥، ١٢٦، ١٤٦، ١٨٥.
(٣) ديوان ابن شهيد الأندلسي (المقدمة الدراسية)، جمع وتحقيق : يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ص٥١.
(٤) د.زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت،١٩٧٥م، ج٢، ص٣٧١.
(٥) ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،ج١ ، ص١٩٢.
(٦) الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق: إبراهيم صقر ، مكتبة مصر، القاهرة ، ج٢، ص٣٧.
(٧) ابن خاقان الإشبيلي ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مُلح أهل الأندلس ، ص١٨٥.

[١]، في حين يقول عنه الدكتور إحسان عباس بأنه أكثر الشعراء الأندلسيين في عصره توقداً في القريحة [٢]، أما الدكتور شوقي ضيف فيرى بأنه:" كان شاعراً كبيراً كما كان كاتباً كبيراً أيضاً " [٣].

إذاً نحن بإزاء شاعر أندلسي من الطراز الأول، اتسم شعره في العموم بالقوة والجزالة والجودة الفنية [٤]،" أصيل الملكة، غزير النتاج، مرن الشاعرية" [٥].

أما قصائد رثاء النفس عند ابن شهيد فإنها في رأيي كانت – أيضاً- في عمومها على درجة كبيرة من الجودة الفنية، بل إننا نجد بعضاً منها " يأتي في الدرجة الأولى، ويمكن مقارنتها بأعظم ما أنتج أي شاعر أندلسي آخر"[٦]، فقد أسهمت مصداقية التجربة المؤلمة التي مر بها ابن شهيد عند شعوره بدنو أجله في ارتفاع الجودة الفنية لتلك القصائد، حتى استطاع أن ينتج بفعلها حالة إبداعية فريدة من نوعها في مجال رثاء النفس[٧].

ولنقف عند بعض مؤشرات الجودة الفنية في بعض الأبيات التي قالها ابن شهيد في رثاء نفسه، ولنبدأ بسمة تشخيص الموت، وكيف جعله ابن شهيد وكأنه كائن حي يهدد لحظات حياته في كل حين، يقول ابن شهيد :

هذا كتابي وكفُّ الموت تـزعجنـي ... عن الحياةِ وفي قلبي لكمْ ذِكـرُ [٨]

ويقول في بيت آخر :

يَبينُ وكفُّ الموتِ يخلَع نفسه ... وداخلها حبٌّ يـهوِّن ثُكلها [٩]

ويقول أيضاً:

إني لأرمقُـه والمـوتُ يضغطـني ... فأقتضي فُرجةً مرتـدَّ أرماقي [١٠]

والذي نلحظه في البيتين الأول والثاني هو تشخيص الموت وتشبيهه بالكائن الحي فحذف المشبه به وأبقى على الكف التي هي شيء من لوازمه، فالصورة الاستعارية للموت في هيئة كائن حي جعلت الموت يتمثل في صورة شخص يقف أمام ابن شهيد بشكل مستمر يهدده بنزع روحه وخلع نفسه، وكذلك نلحظ الأمر نفسه في البيت الثالث عندما يقول (والموت يضغطني) ، فلازال ابن شهيد يصور الموت في هيئة شخص يضغط على أنفاسه وهو يرمقه بطرف عينه ، وينظر إليه نظرة اليائس للحياة.

وفي هذا السياق ذاته نجد بيتين آخرين لابن شهيد يفيضان إبداعاً وجودة ، وذلك بتشخيصه للحياة الدنيا وكيف تولت عنه برأسها وتركته يواجه الموت وحيداً،

(١) ديوان ابن شهيد الأندلسي (المقدمة)، تحقيق : شارل بلا ، ص ١٤ .
(٢) د. إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ص٢٦٦.
(٣) د. شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ،القاهرة ، ط٥ ، ص ٣٢١ .
(٤) د. إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ص٢٦٦.
(٥) د. أحمد هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة ، ط٧، ١٩٧٩م، ص٣٣٦.
(٦) المصدر نفسه، ص٧٢.
(7) Teresa Garulo , La literatura Arabe del Al-Andalus durante el siglo xi, ediciones Hiperion ,Madrid ,1998,p100.

(٨) الديوان، ص٦٢.
(٩) الديوان، ص١٢٧.
(١٠) الديوان، ص ١١٦.

حتى أنه تمنَّى أن يكون ساكناً في مكان يغيّبه عن الموت أو بأعلى جبل شاهق على الأرض، فيقول:

ولما رأيتُ العيشَ ولّى برأسِهِ وأيقنتُ أنَّ الموتَ لا شكَّ لاحِقِي
تمنيتُ أنّي ساكِنٌ في غيابةٍ بأعلى مهبِّ الرّيح في رأس شاهقِ[1]

وفي مؤشر آخر للجودة الفنية في رثائيات النفس عند ابن شهيد نجد براعته في بناء إحدى قصائده التي قام بتكثيف بنية الفعل المضارع وتوالي تكراره بصورة استطاع من خلالها أن يصور صراعه المستمر في مواجهة الموت الذي لم يمهله كثيراً بعد مرضه، يقول ابن شهيد :

أنوحُ على نفسي وأندُبُ نُبلها إذا أنا في الضراء أزمعتُ قتلها
رضيتُ قضاءَ الله في كل حالةٍ ١ عليَّ وأحكاماً تيقَّنتُ عدلها
أظلُّ قعيدَ الدار تجتُنُني العصا على ضعف ساقٍ أوهن السُّقمُ رجلها
وأنعي خسيساتِ ابن آدم عاملاً براحة طفلٍ أحكم الضُّرُّ نصلها [2]

إن مؤشرات الجودة الفنية متعددة الجوانب في قصائد رثاء النفس عند ابن شهيد ، ولعلنا نختم الحديث في هذا الجانب بالوقوف على تلك المقدمة التي بدأ بها قصيدة ينعي فيها نفسه وأحد أصدقائه وهو ابن اللمائي، يقول ابن شهيد :

أمِنْ جَنَابهم النفحُ الجنوبيُ أهدى أسرى فصاكَ به الغَوْرِ غاريُّ؟
إليَّ ظلاماً رَدْعُ نافجةٍ والليلُ أدماءَ شقَّ بها الدَّأماءَ هنديُّ
قد قام في أثواب نادبةٍ والنجمُ كأنَّه فوق ظهر الأرض نُوبيُّ
تحسبُهُ قُدَّام تابِعِه وجدولُ الأفْقِ حمامةً رامها في الجوّ بازيُّ
يجري في منافسه ماءٌ سقى زهرة الخضراء فضيُّ

(١) الديوان، ص١١٠.
(٢) ديوان ابن شهيد الأندلسي، ص ١٢٦.

لقد كانت هذه القصيدة الوحيدة في رثاء نفسه التي بدأها ابن شهيد بمقدمة، ولعلنا نلحظ ملامح السوداوية والتشاؤم التي رسمها ابن شهيد في هذه الأبيات والتي يمكن أن نلحظها في الكلمات التالية (الظلام، أدماء، الليل، نادبة، نوبي) ، كما أن صورة الحمامة التي يرومها الصقر في الجو هي بمثابة المعادل الموضوعي للموت الذي يروم حياة الإنسان في هذه الدنيا، ثم نجده يختم هذه المقدمة بصورة ما بعد الموت في الحياة الآخرة ، حيث نلمح في البيت الأخير أن تصويره لنفسه بأنها ستكون في مرحلة ما بعد الموت كتلك الزهرة الخضراء التي يسقيها جدول فضي من الماء الزلال .

ثالثاً : التنوع الموضوعي

اتسم شعر رثاء النفس عند ابن شهيد بالغنى والتنوع الموضوعي، حيث ضمت القصائد العديد من الموضوعات ذات العلاقة برثاء النفس، فالعزاء والندب والتأبين وكذلك الزهد والتوبة كلها موضوعات فرعية تصب جميعها في فلك الموضوع الرئيس وهو الرثاء بعمومه و رثاء النفس بصورة مماثلة.

فالعزاء الذي يعني " الصبر على كارثة الموت والرضي بالقدر"[3] كان حاضراً في قصائد ابن شهيد، ومن ذلك قوله :

رضيتُ قضاءَ الله في كل حالةٍ ١ عليَّ وأحكاماً تيقَّنتُ عدلها[1]

(٣) د.شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط١٩٨٧،٤م، ص٨٦.

كما أن قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد معاني الندب الذي هو" النوح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية وتذيب العيون الجامدة "[٢]، يقول ابن شهيد نادباً نفسه :

أنوحُ على نفسي وأندُبُ نُبلها إذا أنا في الضراء أزمعتُ قتلها[٣]

ولم يكن التأبين غائباً عن مشهد قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، فقد أثنى ابن شهيد على نفسه وطلب من أصدقائه ألا ينسوا فضل أخلاقه ويتذكرون أيامه بعد موته[٤]، فقال:

فلا تنْسَ تأبيني إذا ما فقدتَـنـِي وحرّكْ لـه بالله مهمـا ذكـرتَنـي
وتذكارَ أيامي وفضلَ خلائقِي إذا غيَّبوني كلَّ شهمٍ غُرانقِ[٥]

ويقول في موضع آخر مادحاً نفسه بالقوة والفتك قبل أن يواجه قدره المحتوم :

فمن مُبلغُ الفتيانِ أنَّ أخاهُمُ أخو فتكةٍ شنعاء ما كان شِكلها؟[٦]

أما من حيث موضوع الزهد والتوبة فلقد رأينا في ثنايا هذه البحث كيف كان أثر الباعث الديني سبباً مهماً في بناء قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد، ولذا فإن موضوعي الزهد والتوبة شكلاً جزءاً رئيساً في البنية الموضوعية لرثاء النفس لدى أبي عامر وأسهما بشكل واضح في التنوع الموضوعي للقصيدة الرثائية عنده.

رابعاً : الحوارية

حفلت أغلب قصائد رثاء النفس عند ابن شهيد بوجود بنية حوارية شكلت جزءاً مهماً من السمات الفنية التي اعتمد عليها أبو عامر في بناء النص الرثائي، وفي رأيي أن ابن شهيد لم يكن دافعه الأول لذلك الاهتمام بجانب البناء الفني، بالرغم من أن البنية الحوارية السردية تضفي الكثير من الحركية والجودة الفنية على بنية النص الشعري ومكوناته إذا وظفت بشكل جيد، لكنني أجد أن الباعث الحقيقي الذي دفع ابن شهيد إلى الاستعانة بالمكون الحواري في بناء قصيدة رثاء النفس عنده ربما كان يتمثل في رغبته في إضفاء سمة تعددية الأصوات داخل نصه الشعري، وهو في ظني أمر يسهم بفاعلية في وصف حالة اليأس التي يعانيها الشاعر بسبب إحساسه بدنو أجله، ولعل ذلك يتضح لنا من خلال هذه الأبيات التي يخاطب فيها ابن شهيد أحد أصدقائه واصفاً له حجم معاناته، فيقول:

فقلت والسُّقْم منشورٌ على جسدي يحدو الردى ورداء العيش مطويُّ:
أهدى اللمائيُّ من أزهار فكرته نشراً، فقال الدجى: مر اللمائيُّ
فقيل: مات؟ فقال الليل: قارب ذا فانهلَّ من مقلتي نوءٌ سِماكيُّ
وبِتُّ فرداً أناجي مُقلتي شغفاً كأنني في نقوب الدار جنّيُّ
لا عشتُ إن متَّ لي يا واحدي أبدا وموتُنا واحد لا شك مرئيُّ
إن الكريمَ إذا ما مات صاحبه أودى به الوجد والثُّكل الطبيعيُّ
إن متُّ قبلك لا تعجب فذو أملٍ قد حُمَّ من دونه يوما حِماميُّ
أو متَّ قبلي فما مَنْعاكَ لي عجبٌ إن الكريم إلى الأصـــحاب منعيُّ[٧]

---

(١) الديوان، ص ١٢٦.
(٢) د.شوقي ضيف، الرثاء، ص١٢.
(٣) الديوان، ص١٢٦.
(٤) د.شوقي ضيف، الرثاء، ص٥٤.
(٥) الديوان، ص١١١.
(٦) الديوان، ص١٢٧.
(٧) الديوان، ص١٨٦.

لقد كان الشعور بالوحدة الذي سيطر على ابن شهيد آخر أيام حياته وهو يواجه شبح الموت دافعاً مهماً إلى مخاطبة أصدقائه وأحبابه عبر بنية حوارية تستدعي حضورهم في مكونات القصيدة الرثائية لديه، فمن ذلك تلك القصيدة التي يخاطب بها أحد أصحابه الذين ربطته به علاقة قوية :

اقرَ السلام على الأصحاب أجمعهمْ وقل له: يا أعز الناس كلّهم الله جارُك من ذي منعة ظفرت ما كان حبك إلا صوب غاديةٍ إن شاء صرفُ الردى تقديم أطوَعِنا وإن أحبَّ الثرى جسما ليأكله عشنا (أليفيْنِ) في بَرّ الهوى زمنا فشتَّتتْ نُوبُ الأيام ألفتنا

وخصَّ عَمراً بأزكى نورِ تسليمِ شخصا عليَّ وأولاهم بتكريمِ منه الليالي بعلقٍ غير مذمومِ طيباً وحاشا لحبي فيك من لومِ فقد رضيتُ، حماك الله، تقديمي أسمحْ بجسمي له يفديك تعظيمي حتى رقي بنوانا طائر الشُومِ قسراً ولم يُغنها ظني وتنجيمي[١]

إن الحركة الناتجة داخل القصيدة بفعل بنية الحوار وتعدد الأصوات تضفي طابعاً من الحيوية على نفس ابن شهيد وتقلص من توترها وقلقها، يقول ابن شهيد في إحدى قصائده مستخدماً أسلوب الحوار مع مجموعة من أصحابه محاولاً إظهار مستوى من الرضا والصبر على ما أصابه:

سقى الله فتياناً كأنَّ وجوههم إذا ذكروني والثَّرى فوق أعظُمي يقولون : قد أودَى أبو عامر العُـلا هو الموت لم يُصْرَفْ بأسجاع خاطبٍ ولم يجتنبْ للبطشِ مُهجةَ قادرٍ يُحلُّ عُرى الجبــارِ في دار ملكهِ

وجوهُ مصابيحِ النجومِ الزواهرِ بَكَوْا بعيونٍ كالسحاب المواطرِ أقِلُّوا، فقِدماً مات آبـاءُ عامـرِ بليغٍ، ولم يُعطَف بأنفاسِ شاعر قويٍ ولا للضعفِ مُهجةَ صافرِ ويهفـو بنفس الشارب المتساكرِ[٢]

(١) الديوان، ص١٤٦.
(٢) الديوان، ص٧٣-٧٤.

الخاتمة

لقد أبانت قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد ملامح مهمة من تجربته الشعرية بشكل خاص وحياته بوجه عام، فالمؤثرات التي أوضحها البحث وكانت باعثاً في وجود النص الرثائي في ديوانه استطاعت أن تعكس لنا جوانب متعددة من تفاصيل حياة ابن شهيد التي تجاذبتها أبعاد مختلفة ما بين نفسية وصحية وأخرى دينية واجتماعية، تلك الأبعاد التي مثلت –في ظني– نافذة جديدة لقراءة نتاجه الأدبي وتحليل مضامينه لاسيما الشعري منه.

أما السمات الموضوعية والفنية التي ظهرت على وجه قصيدة رثاء النفس عند ابن شهيد وفي ثنايا أعماقها فقد استطاعت أن تؤكد لنا أننا بإزاء شاعر أندلسي لا ينضب معين إبداعه، فقد حوَّل المأساة التي عانى منها إلى عقد من الإبداع الفني الذي ينتظم في سلك من الكلمات والمعاني والصور والأخيلة ذات الدلالات المعبرة والأبنية المميزة ، كما تؤكد –في الوقت نفسه– بأن النص الشعري في رثاء النفس عند ابن شهيد يحتاج –كذلك– إلى مزيد من القراءات الفنية والدلالية التي لم يقف عليها هذا البحث كثيراً خشية الإطالة والخروج عن هدف البحث الذي كُتب من أجله .

المصادر

أولاً : المصادر العربية

١- ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق : د.محمد عبدالله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٤م.

٢- ابن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق : د.إحسان عباس، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٧٥م.
٣- ابن خاقان، مطمح الأنفس ومسرح التأنس، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.
٤- ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق : محمد محي الدين عبدالحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، ١٩٧٢م.
٥- ابن سعيد، المُغرب في حُلى المغرب، تحقيق : د.شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٩٣م.
٦- ابن عبد ربه، العقد الفريد، تحقيق إبراهيم محمد صقر، مكتبة مصر، القاهرة، ٢٠٠٨ م.
٧- أبو بكر المالقي، أدباء مالقة، تحقيق: د.صلاح جرار، دار البشير، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
٨- أبو هلال العسكري، الأوائل، تحقيق : د.محمد السيد الوكيل، دار البشير، طنطا، ط١، ١٩٨٧م.
٩- إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي : عصر سيادة قرطبة، دار الشروق، عمان، ط١،٢٠٠١م.
١٠-أحمد عبدالعزيز، قضية السجن والحرية في الشعر الأندلسي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٩٠م.
١١-أحمد هيكل، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، القاهرة، ط٧، ١٩٧٩م.
١٢-الأصفهاني، الأغاني، تحقيق : د.إحسان عباس وآخرين، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٢م.
١٣-الثعالبي ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، تحقيق: إبراهيم صقر ، مكتبة مصر، القاهرة .
١٤-الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق : عبدالسلام هارون، دار الفكر، بيروت.
١٥-حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: د.محمد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٣، ١٩٨٦م.
١٦-حازم عبد الله خضر، ابن شهيد الأندلسي حياته وأدبه، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، بغداد، ١٩٨٤م.
١٧-الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة أهل الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م.
١٨-ديوان ابن الخطيب، تحقيق : د. محمد مفتاح، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٨٩م.
١٩-ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق : عفيفة محمود ديراني، دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٨٩م.
٢٠-ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: د.علي عبدالعظيم، منشورات مؤسسة جائزة عبدالعزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، الكويت، ط٣، ٢٠٠٤م.
٢١-ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمع : شارل بلا، دار المكشوف، بيروت،ط١، ١٩٦٣م.
٢٢-ديوان ابن شهيد الأندلسي، جمع وتحقيق: يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة.

٢٣-ديوان المعتمد بن عباد، تحقيق : د. حامد عبدالحميد، د. أحمد بدوي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٠م.

٢٤-ديوان عبدالكريم القيسي، تحقيق د.جمعة بن شيخة، د.محمد الهادي الطرابلسي، المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، تونس، ١٩٨٩م.

٢٥-زكي مبارك، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥م.

٢٦-سمير عبده، التحليل النفسي للحظة انتظار الموت، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.

٢٧-شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه في النثر العربي ، دار المعارف ،القاهرة ، ط٥ .

٢٨-شوقي ضيف، الرثاء، دار المعارف، القاهرة، ط٤،١٩٨٧م.

٢٩-عبدالله المعطاني، ابن شهيد الأندلسي وجهوده في النقد الأدبي، منشأة المعارف، الإسكندرية، ١٩٩٤م.

٣٠-عزالدين إسماعيل، الأسس الجمالية في النقد العربي : عرض وتفسير ومقارنة، دار الفكر العربي، القاهرة، ٢٠٠٠م.

٣١-محمد عبدالله أبو الخير، شعر رثاء النفس حتى نهاية العصر العباسي : دراسة موضوعية وفنية، دار جهينة، الأردن، ط١، ٢٠٠٦م.

٣٢-مصطفى سويف، الأسس النفسية للإبداع : في الشعر خاصة، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م.

٣٣-مقداد رحيم، رثاء النفس في الشعر الأندلسي، دار جهينة ، الأردن، ٢٠٠٧ م.

ثانياً: المصادر الإسبانية

1- Jorje Lirola Delgado ,Biblioteca de al-andalus , la Fundación Ibn Tufayl de estudios árabes, Almería ,2007.
2- Teresa Garulo , La literatura Arabe del Al-Andalus durante el siglo xi, edicions Hiperion ,Madrid ,1998.

Ibn Shahid Alandalusi's Self-Commiseration: Influences and Characteristics

Saeed Musafar Almaliki

Faculty of Arts and Humanities
Jeddah – Kingdom of Saudi Arabia

Abstract. this paper studies Ibn Shahid's self-elegy in terms of the influences that shape it and its major characteristics. The paper begins with a foreword followed by an introductory overview of the self-elegy's history in the poetry of the Levant and Andalusia. In the first of its two sections, the paper discusses the influences which contribute to shaping Ibn Shahid's self-elegy, while in the second it analyzes its major thematic and stylistic characteristics. The paper ends with stating its key conclusions.